نحو جبهة ثقافية عريضة

الدكتور عبد الرحمن منيف

بعد كل هزيمة، وهي هزائم كثيرة ومتلاحقة، يطرح المطلب نفسه: المراجعة والتقييم، لكننا لم نقم منذ الهزيمة الاولى، وحتى الآن، بالمراجعة الجدّية المطلوبة، ولم نتوصل الى تقييم دقيق وصارم. كنا، ولا نزال، نخدع أنفسنا، نكذب على الآخرين، نموّه الوقائع او نرضى ان تموّه علينا، ونسير مثل القطيع الى الهزيمة التي تليها!

عام ١٩٤٨ قالوا ان الجيوش العربية لا تملك سلاحاً، لان الاستعمار الذي كان حاكماً أو مسيطراً لا يعطي السلاح، ولذلك فان هذه الجيوش لم تحارب، او لم يكن لديها أوامر بالحرب، فهزمنا!

عام ١٩٦٧، وقد جُهّزت الجيوش وامتلأت المخازن بالسلاح ودقّت الطبول استعداداً لمعركة فاصلة، جاءت الضربة من حيث لا نتوقع، انتظرناهم من الشرق فجاءوا من الغرب، فهزمنا مرة اخرى... لكن في محاولة للتمويه على النفس اعتبرنا ان الهزيمة غير كاملة، لان من جملة أهداف اسرائيل إسقاط الانظمة، وباعتبار ان الانظمة مستمرة ولم تسقط فان الهزيمة لم تقع تماماً!

عام ١٩٧٣ دخلنا معركة لا يُعرف اذا هزمنا فيها او انتصرنا، لكن من جملة ما ترتّب عليها: كامب ديفيد، وبالتالي خروج مصر من المعركة، والوضع العربي الراهن، بكل بؤسه وانحطاطه ولاعقلانيته!

وعام ١٩٧٢ كان لا بد ان تقع معركة الحصاد واقتسام البيدر. مئة وخمسون مليون عربي (او ربما اكثر) ظلوا لثلاثة اشهر متوالية يراقبون معركة بيروت ويتابعون تفاصيلها عبر شاشات التلفزيون، لأنهم حرموا من حق المشاركة بسبب غياب الديمقراطية، واثنان وعشرون حاكماً (او ربما اكثر) لم يملكوا الوقت والجرأة لعقد اجتماع واحد لتدارس هذه المعركة. اما الدبابات، آلاف الدبابات، الطائرات، مئات الطائرات، وملايين الجنود فقد ظلوا في حالة تأهب كامل من أجل حماية الانظمة وقمع الشعب وحرقه عند الضرورة اذا قرّر أن يعبّر عن رأي او موقف!

والآن.. هل نملك الجرأة ونقول بعض ما حصل؟ لماذا هُزمنا ومَنْ هزمنا؟

أعتقد اننا، أولاً، لا نملك الجرأة الكافية لمواجهة الحقيقة العارية، لا نستطيع ان نعترف، ولذلك نلجأ الى التمويه والتعمية والمزاودة.. وأخيراً حساب الاسداس والاعشار!

وثانياً، في حال الاعتراف الخجول المموّه نحاول ان نحمّل المسؤولية للآخرين، وأغلب الاحيان «الآخرون» هم الذين ذهبوا، البعيدون، الذين سقطوا او الذين لا اصوات لهم.

وثالثاً، اذا سمّينا الأشياء والاشخاص باسماء قريبة من الحقيقة فاننا نعفي انفسنا من أية مسؤولية في تغيير الاشياء والاشخاص.

ورابعاً، في حال اجتيازنا لهذه المراحل الشاقة والعقبات فاننا نصل الى أحد المفارق، فنقلب التحليل السابق كله، فاما ان نخلص من هذا التحليل الى تركيب خاطىء، كأن نضع العربة امام الحصان؛ او ان نعتبر اننا وحدنا الذين نملك الحقيقة، ولا يملكها غيرنا، فنصم اذاننا عن كل ما يقال، ونمنع الآخرين من ان يقولوا ما يريدون؛ او ان نحرق المراحل جميعاً فنريد في فترة قصيرة ان نحقق كل شيء: التحرير والديمقراطية والاشتراكية، في الوقت الذي لم نهيء شروط شعار واحد من شعارات المرحلة!

لهذه الاسباب مجتمعة او متفرقة - وربما لغيرها - نظل ندور في الحلقة المفرغة نفسها، ونحن على استعداد كامل لاستيعاب وامتصاص هزيمة أخرى.. الهزيمة التي لا بد ان تقع في ظل الشروط ذاتها التي تتكرر باستمرار.

هل أُعتبر متشائماً في ماقلته حتى الآن؟

أخشى ان اكون كذلك، فالهزائم لم تنته بعد، ولعل أخطرها وأكبرها معركة بيروت. وأخشى ان تكون هذه الهزيمة بداية لسلسلة من الهزائم الجديدة، هذه الهزيمة كبيرة وخطيرة ليس بحجمها فقط وانما بدلالتها. إنها النمط الجديد للهزائم القادمة. فاسرائيل لا تهدف ولا ترضى في المرحلة القادمة ان تكون مجرد دولة من دول المنطقة، اي لا تبحث بعد الآن عن الاعتراف والتعايش، وانما تريد ان تكون دولة مسيطرة، أي الدولة الاهم، التي تقرر سياسة المنطقة وشكلها وعلاقاتها.

ما حصل في بيروت مجرد البداية أولاً، ثم إنه لم ينته بعد. ولذلك ما حصل وما سوف يحصل سينقل ويعمّم، وسوف يكون النموذج لما يراد ان تكون عليه المنطقة: الدولة الدينية الطائفية هي صيغة الدولة التي يراد لها ان تعمّ وتنتشر، وفي ظل دول الطوائف سوف تكون اسرائيل دولة الطائفة الاقوى، وسوف تكون النموذج والحكم أيضاً.

في ظل هذا الوضع ما هو دور الثقافة ودور المثقفين؟

يجب ان نبتعد، قدر الامكان، عن المبالغة، وعن لعبة الكراسي الموسيقية في تصوّر دور الثقافة ودور المثقفين.

للثقافة دور، ودور هام جداً، وللمثقفين دور أيضاً، لكن ضمن وضع عام وضمن سياق عام. الثقافة ليست آلة سحرية، كما انها ليست مجموعة من المعارف، وانما هي فعالية معينة في وضع متفاعل ومتبادل، وهذه الانماط من التفاعل ثم انعكاسها على البشر في مرحلة معينة تهدف الى دفع الامور الى الأمام لتجاوز حالة الضياع والتخلف والخوف.

لكي تكون هذه الثقافة منتجة وايجابية يجب ان تستلهم واقع المرحلة وحاجات الجماهير وروح العصر، لأن الثقافة ليست شيئاً مجرداً، كما أنها ليست فقط تراكماً للمعارف والمعلومات، وانما ترتبط، في جانب أساسي منها، بتلبية حاجات فعلية، قائمة وملحة، ولذلك كلما ارتبطت هذه الثقافة بدور وهدف كلما كانت أكثر فعالية وفائدة.

ومن أجل تحقيق هذا الدور وهذا الهدف يجب ان تكون ثقافة المرحلة صادقة حتى الجرح، ودقيقة كحد السكين، ويجب ان تكون واضحة قدر الامكان، بحيث تصل الى قطاع واسع دون التباس ودون الدخول في متاهات مفتعلة.

المنطلق الاساسي لثقافة من هذا النوع هو النقد والنقد الذاتي. ان جدارة الثقافة المطلوبة تتمثل بجرأتها، بقدرتها على ان تتجاوز نفسها باستمرار، ان تتكامل من خلال التجربة والتفاعل دون خوف.

النقد والنقد الذاتي لا يكونان بتوجيه اللوم والإدانة الى الآخرين فقط: الاشخاص والافكار، بقدر ما يتمثلان بقدرة المراجعة والتكامل والتصحيح. واذا كان من المطلوب بالحاح في هذه المرحلة، على المستوى السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي مراجعة نقدية صارمة، وليس توجيه اللوم الى الآخرين، فان اداة المراجعة ثقافية، بالدرجة الاولى، لذلك يجب ان تخضع هذه الاداة ـ المقياس الى المراجعة من باب اولى.

واذا كنا نتوخى في هذه المرحلة شجاعة في التصدي والنظرة والموقف، فان شجاعة مثل هذه لا تصدر الا عن رجال شجعان، رجال يتمتعون بحدٍ عال من النزاهة والجرأة والاستقلال والوعي والمسؤولية، ولذلك يزداد دور المثقف اهمية وتأثيراً بمقدار تمتّعه بهذه الصفات، فكاتب السلطة، اية سلطة، غير مؤهل للقيام بهذا الدور، لأن مهمته، لسبب او لآخر، أن يبرّر مواقف السلطة التي ينتمي اليها او تستخدمه، فهو ليس اذن نزيها او مستقلا بالمقدار الكافي، وليس قادراً على تحمل المسؤولية لأن موقعه «الثقافي» مستمد من السلطة ذاتها.

ان أحد المظاهر التي سنواجه في المرحلة القادمة ان مثقفي السلطة العربية ـ وهي في الحقيقة، وبعد معركة بيروت، سلطة واحدة ـ سوف يوجهون ادانتهم ونقدهم الى المثقفين الآخرين ويحمّلونهم مسؤولية الهزيمة، لانهم مستقلون ولانهم «متطرفون».

لذلك، وتأسيساً على هذه النقطة بالذات، يجب ان يشرع المثقفون، وقبل فوات الآوان، باقامة مؤسسات ثقافية مستقلة عن اية سلطة، ويجب ان تكون هذه المؤسسات اداة للدفاع وحماية حرية الرأي ومجالاً للتفاعل في صيغ مواجهة القمع والإحتواء والتدجين.

ان الحرية الفكرية والسياسية المطلوبة يجب ان تكون حقاً عاماً ومتساوياً بالنسبة للجميع، وهو الاساس لخلق جبهة ثقافية عريضة تكون الى جانب الصيغ الشعبية الأخرى الشكل الاكثر ملاءمة للمرحلة القادمة.

فاذا كان المطلوب في المرحلة الحالية، على مستوى الجماهير والقوى السياسية، ان نؤكد على شعارين اساسيين هما: الديمقراطية والجبهة الوطنية العريضة، لاننا، بمعنى معين، لا زلنا في مرحلة التحرر الوطني، ويفترض هذان الشعاران التفاف واستيعاب ومشاركة اوسع القوى، فان الأمر على المستوى الثقافي يفترض الانطلاق من الايمان بحرية الرأي والتحالف من اجل تحقيق هذا الهدف وحمايته.

ان الهزيمة العربية التي بدأت عام ١٩٤٨، واستمرت منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وافرزت صيغ الحكم العسكري وحكم الحزب الواحد ومصادرة الحريات العامة والغاء دور الجماهير، هذه الهزيمة اخذت منعطفاً جديداً في معركة بيروت. صحيح ان المقاومة الفلسطينية قد هزمت عسكرياً في هذه المعركة، لكن المقاومة الفلسطينية بالتحالف مع الجماهير صمدت وقاومت اكثر من جميع الانظمة العربية في حروبها كلها مع اسرائيل، واثبتت هذه المعركة أيضاً ان طريقة الانظمة في مواجهة اسرائيل ليست خاطئة وعقيمة فقط، بل وعلى حساب الطريقة الصحيحة التي يجب ان تخاض المعركة على أساسها، ويمكن للثقافة ان تلعب دوراً في اظهار الجوانب المضيئة، وفي تعزيز ثقة الجماهير وتوسيع دورها ومشاركتها، وليس كما تفعل ثقافة السلطة في تحميل الجماهير المسؤولية، ووصفها بالجهل والسلبية والتخلف، في محاولة لذر الرماد في العيون وتكريس الهزيمة!

هذه هي الرؤية الاولى للثقافة ولدور المثقفين في المرحلة الحالية، وهذه الرؤية التي يجازف الانسان بتقديمها في ظل الحرائق والخراب والتراجع، تحتاج الى وقفات طويلة ومتأنية في المرحلة القادمة من اجل تعميقها وتوضيحها، وبالقطع تحتاج الى مجموعات عمل وليس الى مجرد اجتهاد فردي.

باريس

دار الآداب تقدم

الدكتورة حياة جاسم محمد

الدراما التجريبية في مصر والتأثير الغربي عليها